

الخاتمة

وإذا كانت المنطقة العربية قد دخلت تحت نفوذ العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول، إلا أن العلاقة بين الجانبين بدأت منذ فترات سابقة خاصة في عهد السلطان محمد جلبي. لقد قام هذا السلطان بإرسال صرة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتعتبر هذه الصرة هي أول صرة يتم إرسالها من قبل العثمانيين إلى الأراضي المقدسة.

لقد أسس العثمانيون علاقة مع أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل دخول أرض الحجاز تحت إدارتهما. وقد لعبت هذه العلاقة دورا مهما بعد دخول الحرمين الشريفين تحت مظلة الإدارة العثمانية، وذلك باعتبار أن العثمانيين لم يكونوا أجنب بالنسبة لهؤلاء السكان.

كما هو معلوم فقد شكلت أراضي القارة الأوروبية مجالا لسياسة الفتوحات العثمانية منذ فترة الإمارة إلى الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي. بيد أن هذه السياسة تغيرت مع وصول السلطان سليم الأول إلى الحكم بناء على بعض الأسباب. ونجد من ضمن هذه الأسباب دخول الأسطول البرتغالي إلى مياه البحر الأحمر.

إن هذا النشاط البرتغالي على مياه البحر الأحمر شكل تهديدا إلى طريق تجارة الهند من جهة، وكذلك أصبح يمثل خطرا على البلاد الإسلامية

المطللة على هذه السواحل من جهة أخرى. ونجد على رأس هذه البلاد أرض الحرمين الشريفين. لقد أصبح هذا التهديد سببا في تغيير سياسة الفتح العثماني التي كانت لا تزال تواصل نشاطها في أوروبا. لذا كانت أول خطوة يقوم بها العثمانيون من أجل الوقوف في وجه الأسطول البرتغالي هو تجميد حركة فتوحاتهم في أوروبا. وعقب القيام بهذه الخطوة تحرك السلطان سليم الأول بجيشه من استانبول قاصدا المشرق الإسلامي.

إن قضاء العثمانيين على الدولة المملوكية التي كانت في أضعف حالاتها في تلك الفترة أدى بطبيعة الحال إلى أن تنتقل أراضيها إلى الدولة العثمانية. وقد كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة من أهم هذه الأراضي التي كانت تخضع للنفوذ المملوكي. إن دخول المدينة المنورة تحت الإدارة العثمانية أدى إلى إحداث تغييرات كبيرة في النواحي الإدارية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك. وعلى سبيل المثال فقد أصبحت المدينة المنورة في هذه الفترة تدار بواسطة موظفين اثنين هما القاضي وشيخ الحرم النبوي. إن هذا النظام الإداري يخالف ما كان موجودا فيها في الفترات السابقة، حيث كانت في تلك الفترات تدار بواسطة الأمراء. بيد أن نفوذ الأمراء هؤلاء زال بشكل كبير في العهد العثماني وأصبح شيئا رمزيا.

من الملاحظ أن المدينة المنورة لم يتم ربطها بالمركز مباشرة. وكانت جميع الأعمال الإدارية والمالية والاجتماعية والبلدية والدينية يتم القيام بها تحت إشراف أمير أمراء مصر. وعلى هذا الأساس يمكن القول أن المدينة المنورة من الناحية الإدارية كانت تتبع إلى إيالة/ ولاية مصر. غير أن إداريي المدينة المنورة كانوا يملكون حق مخاطبة المركز مباشرة.

ونلاحظ أن الحكومة المركزية قد وجهت عدداً كبيراً جداً من الخطابات إلى هذين المسؤولين، أي إلى قاضي المدينة وشيخ الحرم.

بناء على المعلومات الواردة في دفاتر الصرة الموجودة في أرشيف متحف قصر طوب قابي، فإن عدد سكان المدينة المنورة في هذه الفترة هو ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة. ويعكس هذا الرقم إلى أي مدى كانت المدينة المنورة مدينة كبيرة في تلك الفترة. وإذا كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأشخاص هم من سكان المدينة الأصليين، إلا أن هناك جزءاً مقدراً من المجاورين الذين جاءوا من شتى أنحاء العالم الإسلامي واستقروا فيها. وقد لعب هؤلاء المجاورون دوراً كبيراً خاصة في الجانب الاجتماعي والاقتصادي.

إن مجيء هؤلاء المجاورين من مناطق مختلفة، واختلافهم عن السكان الأصليين من حيث أسلوب الحياة والعادات والتقاليد والثقافة بصورة عامة أدى إلى إثراء المدينة المنورة في جميع الجوانب. بالإضافة إلى أن المدينة أصبحت عبارة عن وطن مصغر لكل المسلمين.

ويمكن القول أن العثمانيين وعلى وجه الخصوص السلاطين نظروا إلى المدينة المنورة من ناحيتين: الناحية الأولى كونها تمثل ثاني المدينتين في الأراضي المقدسة بجانب مكة المكرمة، وهذه نظرة دينية بحثة نابعة من تمسك سلاطين الدولة العثمانية بدينهم الإسلامي، والذي كانت المدينة المنورة نقطة انطلاقه إلى شتى أنحاء العالم، ثم أصبحت مقراً لأول دولة في تاريخ الإسلام. وبالإضافة إلى ذلك فإن وجود المدينة المنورة تحت مظلة الدولة العثمانية تكسب سلاطين هذه الدولة مكانة سامية وسط المسلمين.

ولهذا السبب كانت خدمة سلاطين آل عثمان للمدينة المنورة نابعة من مكانتها الدينية الخاصة والارتباط القوي من كافة المسلمين بها. وفي الوقت نفسه فإن هذا الاهتمام الكبير حقق فوائد جمة للعثمانيين وجعلهم يكسبون ود الأهالي المسلمين باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين الذين يذودون عنهما خاصة وإن بقية القوى الإسلامية قد ضعفت، بل وتلاشت. من أهم النتائج التي يمكن أن نصل إليها من خلال هذه الدراسة هي أن المدينة المنورة خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي قد حظيت باهتمام كبير ليس فقط من طرف سلاطين الدولة العثمانية، بل وحتى من أمهات هؤلاء السلاطين وبناتهم وأفراد السلطنة العثمانية الآخرين، وكذلك من كبار رجال الدولة من صدور عظام ووزراء وقادة، وأثرياء المجتمع العثماني حيثما كانوا. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح من خلال المعلومات الواردة في الوثائق العثمانية في الفترة المشار إليها.